المحاضرة رقم 2: مالك بن نبي.. شروط النهضة ومشكلات الحضارة

الاهدف:

- ان يتعرف الطالب على اسس مشروع النهضة عند مالك بن نبي
- ان يتعرف الطالب على الزوايا النقدية لمالك بن نبي لمشكلات الحضارةز
- أن يحدّد الطالب المنطلقات الفكرية لمالك بن نبي
- أن يحدّد الطالب قيمة ومسؤولية الانسان كفرد وكجماعة في بناء المشروع الحضاري
- أن يبيّن الطالب مكانة الوقت والوطن ثم الاستماتة الحضارية في نجاح المشروع الحضاري

الإشكالية:

يقول مالك بن نبي في كتابه مشكلة الأفكار"يجب على كلٍّ منا أن يُعيد التكيف، شيئًا فشيئًا، مع وظائفه الاجتماعية وكرامته الروحية"

"الحضارة هي تجلٍّ لحياة، لفكر جماعي. ومن هذا المنظور، يُعد التاريخ علم اجتماع: دراسة ظروف تطور جماعة اجتماعية، لا تُحدد بخصائصها العرقية أو السياسية بقدر ما تُحدد بمجموعة الانتماءات الأخلاقية والجمالية والتقنية التي تتوافق مع مجال هذه الحضارة".

Malek Bennabi, *Vocation de l'islam,* sans lieu d'édition, Éditions ANEP, 2006, p. 21.

.

تمهيد:

مالك بن نبي (1905- 1973م) من أعلام الفكر الإسلامي أمضى أكثر من ثلاثين عاما متأملا، يحلِّل ويضع شروط النهضة للمجتمع الإسلامي. ولد مالك بن نبي عام 1905 في قسنطينة شرق الجزائر، وكانت مراحل دراسته الابتدائية والثانوية بين مدينتي (تبِسة) و(قسنطينة). سافر عام 1925 إلى مرسيليا، وليون، وباريس؛ بحثًا عن عمل، ولكن دون جدوى، فعاد إلى الجزائر؛ حيث عمل في تبسة مساعد كاتب في المحكمة، وأتاح له عمله هذا الاحتكاك بمختلف شرائح المجتمع أيام الاستعمار؛ ما ساعده على تفسير ظواهر مختلفة فيما بعد. وفي عام 1928 تعرف مالك بن نبي على الشيخ عبد الحميد بن باديس (1887- 1940م)، وعرف قيمته الإصلاحية، ثم سافر مرةً ثانيةً إلى فرنسا عام 1930؛ حيثُ سعى للدخول إلى معهد الدراسات الشرقية، ولكنه لم ينجح في الدخول، وسمح له بدخول معهد اللاسلكي وتخرج فيه مهندسا كهربائيا. بقي في باريس من عام 1939 إلى 1956، ثم ذهب إلى القاهرة للمشاركة في الثورة الجزائرية من هناك وفيها بدأ التعرف على فكره. انتقل إلى الجزائر عام 1963 بعد الاستقلال حيث عين مديرا للتعليم العالي، ولكنه استقالَ من منصبه

عام 1967، وانقطع للعمل الفكري، وتنظيم ندوات فكرية كان يحضرها الطلبة من مختلف المشارب، وكانت النواة لملتقى الفكر الإسلامي، الذي يعقد كل عام في الجزائر،إلى أن توفّي في 31 أكتوبر عام 1973.

وقد كان المفكر الجزائري مالك بن نبي (1905-1973) ممن أطلقوا سهام نقدهم على مشروع التحديث وتمثلاته في الوعي والاجتماع العربي والإسلامي، وكتب بن نبي عدة كتب تحمل مشروعه، مثل (الظاهرة القرآنية)، و(لبيك)، و(وجهة العالم الإسلامي)، و(الفكرة الإفريقية الأسيوية)، وكتابه: "شروط النهضة".

يتمحور كتاب "شروط النهضة" حول نقد المجتمع العربي الجزائري وصفوته الدينية الإسلامية، التي مالت إلى الاستعمار، واندمجت في النظام السياسي الذي صممته وهندسته فرنسا، واضعاً في مقالات موجزة ملاحظاته الناقدة لتداعيات ذلك الاندماج على الجزائر، وكيف أثر هذا الاندماج بالسلب على الشعب الجزائري المسلم.

شروط النهضة ومشكلات الحضارة.

واقعية الطرح

يعد مالك بن نبي من أبرز المفكرين المسلمين الذين استطاعوا أن يشخصوا مشكلات راهن العالم الإسلامي، ومشكلات الحضارة الإنسانية. وقد تمكن من تشخيص العلل التي تسببت في إنتاج حالة القابلية للاستعمار والتخلف بمنطق رياضي والذي كثيرا ما استخدمه في منحنيات فكره الذي اتسم بكثير من الواقعية.

ويرى ابن نبي أن الله قد سن سنة في خلقه، فعندما تغرّب الفكرة يبزغ الصنم، والعكس صحيح أحيانا؛ [1]بمعنى أن المجتمعات عندما تفقد مشروعها الحضاري، وتنسى أهدافها تهتم بالشكل الظاهري بدون المضمون النافع من المذهب، وقد بزغ هذا الصنم-على حد قوله-في تاريخ الجزائر مع اندماج الجزائريين في الحياة السياسية الجديدة في عام 1936 م، وانشغل الدعاة بالترويج والدعاية السياسية وبتملق الناخبين، واللهث وراء المصالح الشخصية، وهذا ما تكرر في النموذج المصري بعد إقرار دستور 1923م، وكان سبباً لثورة يوليو 1952، وهو ما يعيد إلى الأذهان عبارات حسن ألبنا عن مصر، حيث صرح قائلاً: "فالأمة في قلق واضطراب وحيرة وارتباك وقد يئست من صلاحية هذه المناهج والنظم [2]"قاصداً المناهج والنظم الغربية الليبرالية والاشتراكية، مع التذكير بما تحويه كلمة صنم من دلالة دينية سلبية آثر ابن نبي استخدامها.

البعد الإنساني والعالمي:

لم يكن ابن نبي ينظّر إلى الواقع الإسلامي فقط وما وصل اليه واقع المسلمين من تناقضات جمعت بين امتلاك الثروة المادية وكل عوامل التحضر، وواقعها المر المأزوم والمهزوم. فقد كان ضد الترف في التنظير، وضد استعمال المخيلة في تشخيص أدواء تسببت في نكبة العالم الإسلامي، وكان يدعو على الدوام إلى الاحتكاك بالواقع المعيش وإنتاج معرفة من وحي هذا الواقع.

لم يربط ابن نبي فكره بموقع جغرافي معين فرغم انتمائه إلى الجزائر كان فكره على امتداد خط (طنجة-جاكرتا) وحاول أن تكون أطروحاته الفكرية بحجم التحديات المحدقة بالعالم الإسلامي، ونجح إلى أبعد الحدود في إنتاج نظريات معرفية إسلامية يستفيد منها المسلمون في باكستان والجزائر ومصر والهند ولبنان وإيران وغيرها من الدول الإسلامية. وكان يعتبر أن المعضلة -أي معضلة- في العالم الإسلامي متشابهة من حيث ظروف التكون والنتائج وأن حلها يتطلب تضافر جهود المجموع الإسلامي الذي كان يطالبه مالك بن نبي بضرورة النهوض ومواجهة التحديات الحضارية الكبيرة.

البعد العملي: **((ضرورة الخروج من التخلف والانتكاس واحتقار الذات إلى التسلح بالعلم والعمل والالتزام بالأخلاق والتدين السليم الذي يوفق بين الروح كعمق والعقل كقوة وعي ونظر وتطور في الفهم))**

وهو ينطلق من معيار عملي يختلف في أساسه عن المقاربات التي اعتمدها المفكرين والكتاب الذي تناولوا موضوع النهضة و شروط تحققها بمختلف توجهاتهم. فنسبة شروط النهضة إلى الجزائر ليست عملية تركيبية تضيف مظاهر العصر الحديث إلى مظاهر الحياة الجزائرية في ظل الاستعمار بل هو عنوان تحليلي لكتاب شروط النهضة فما الجزائر إلا مساحة مارس عليها ومن خلالها، التحليل التي انتهى به إلى بناء مفهوم القابلية للاستعمار كواقع نفسي يحدّد مرحلة معينة من واقع المعنى المضمر الذي الانتكاس الحضاري الذي شهدته الحضارة الإسلامية في عمق الجزائر وهي مرحلة اتسمت بالأفول والانسحاب من المسار التاريخي للحضارات، وفقدان الإيمان بالنفس والقدرة على استئناف عملية صناعة الحضارة وامتلاك أسباب القوة ثم الوقوع في فخ الاستسلام للتخلف والجهل والتقليد، ممّا ادى إلى استقالة الشعوب المسلمة عن دورها الحضاري وهو ما هيئ النفوس والعقول وخلق فيها نوع من الاستعداد لتصبح فريسة سهلة بين أيدي الدول التي تسعى الى بلوغ السيادة وامتلاك زمام صناعة الحضارة وهو ما يسميه بالقابلية للإستعمار. فالقابلية للاستعمار هي في النهاية قضية تتعلق بالأفكار في مرحلة من الشلل الفكري يعبر عنه واقع الجزائر. وبأهمية الفكرة وقدرتها في النهوض الحضاري، فالمجتمعات رهينة الفكرة التي تغذيها. ومنه

يصبح الفكر بمثابة الميدان او الحقل الأول الذي يجب استهدافه في أي مشروع حضاري. ومنه من الضروري بما كان الوقوف على الوضع الفكري لفهمه وفهم طبيعة الأفكار التي تسيطر على الشعوب المسلمة، ليصبح وضعها مأزوما. ولهذا نجده في جل مؤلفاته، يشتغل على مشكلة الأفكار وكيفية صناعتها، هذا يؤكد مدى قناعة مالك بن نبي الجزائر ليست سوى نموذج من العالم الإسلامي كله الذي يشكل مجال دراسة لتماثل الأعراض في عالم الأفكار.

والخروج من القابلية للاستعمار يتطلب تأهيلا جديدا للثقافة العربية الإسلامية للمجتمعات المسلمة ، عن طريق التحليل والنقد والتصحيح قصد القضاء على الأفكار السلبية التي ساهمت في شلل العالم الإسلامي وتوقفه عن صناعة الحضارة بالرغم من امتلاكه للمقومات والأسباب الفاعلة في النهوض الحضاري، وهي التي ساهمت في اللحظة التي نشأت فيها ولادة الحضارة العربية الإسلامية و ولادة الإسلام ومنه تصفية الأفكار السلبية التي أصبحت تسيطر على العقول و تكلّس الفكر عند المسلمين.

فخ التقليد وسيطرت الفكر الشيئي: يرى بن نبي أن من نتائج الانبهار بالتفوق والتقدم المادي الغربي، والاعتقاد ان الحصول على منتجاته الحضارية(المادية والمعنوية) ثم اعتماد نهج التقليد والتمثيل للنموذج الأوروبي ، جعل العالم الإسلامي يراوح مكانه ويمكث في مرحلة طفولية، تتمثل في الفكر الشيئي الذي يعتبر الأشياء أساس التحضر والتقدم عالم الأشياء دون أن ينتقل إلى عالم الأفكار ، وهو يؤرخ لها بعام 1858. بالمقارنة مع طفولة اليابان 1868 فالعالم الإسلامي بقي في عالمي الأشياء والأشخاص فيما انتقل اليابان إلى عالم الأفكار عبر عالم الكبار. وهكذا وقع العالم الإسلامي في فوضى الأشياء والأفكار حين أضحى جزءاً من مجتمع عالم فوق صناعي يبيعه الأشياء ويفرض عليه في الوقت نفسه مقاييسه ويرغمه على إعداد اعتبار لمعاييره، وهكذا رد المجتمع الإسلامي على مفعول هذه الرابطة باعتبارها إلزاما في الحقل الاقتصادي وفوق الإلزام في الحقل الفكري.

هذه الفوضى النفسية والفكرية جعلت الفرد المسلم يولد في مجتمع يفتقد للتناغم والتناسق الثقافي والاجتماعي ومنه انعدام الوحدة او الاتحاد. وخلال هذه السنوات الطويلة قدمت دراسات وأبحاث تتصل بموضوع النهضة. هذه الدراسات تعالج الاستعمار والجهل هنا، والفقر والبؤس هناك، وانعدام التنظيم واختلال الاقتصاد أو السياسة في مناسبة أخرى. ولكن ليس فيها تحليل منهجي للمرض، أي دراسة مرضية للمجتمع العربي، دراسة لا تدع مجالاً للظن حول المرض الذي يتألم منه منذ قرون.

كما يوضح أنه نجد أن كل مصلح قد وصف الوضع الراهن تبعاً لرأيه أو مزاجه أو مهنته. فرأى رجل سياسي كجمال الدين الأفغاني أن المشكلة سياسية تحل بوسائل سياسية، بينما رأى عالم دين كالشيخ محمد عبده، أن المشكلة لا تحل إلا بإصلاح العقيدة والوعظ. ونتج عن هذا أنهم منذ مائة عام، لا يعالجون المرض، وإنمـــا يعالجون الأعراض، وكانت النتيجة قريبة من تلك التي يحصل عليها طبيب يواجه حالة مريض بالسل، فلا يهتم بمكافحة الجراثيم، وإنمـــا يهتم بهيجان الحمى عند المريض. والمريـــض نفسه يريد – ومنذ مائة عام – أن يبرأ مـــن آلام كثيـــرة، منها: من الاستعمار ونتائجه، من الأمية بأشكالها، من الفقر رغم غنى البلاد بالمادة الأولية، من الظلم والقهر والاستعباد. واستحضر مالك بن نبي ، مفهوم البطل في الإلياذة والأوديســـة، الذي يقاتـــل ويصارع حتى الموت، لدوافع دينيـــة وإنسانية بحتة، دون إحراز النصر.مؤكداً أن محاربـــة الاستعمار في العالم العربي والإسلامي كانت شبيهة بقتال الأبطال الإغريق، أي أنه قتال محكوم مسبقاً بالهزيمة، وأعطى مثالاً تمثل بمحاربين جسورين، هما الأمير عبد القادر والمجاهد عبد الكريم الخطابي، مؤكداً أن حركتهما التحررية لم تعالج جذور المشكلة، وأن جمال الدين الأفغاني هو من انتصر بالفكرة، قائلاً في هذا الصدد:

» **إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلة ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبنى الحضارات أو تهدمها».** كما تطرق بن نبي إلى دور السياسة والفكر، وتحدث عن أثر الكلمة وما تنتج عنه من فوائد للفرد والمجتمع. وعن دور الوثنية ركز مالك بن نبي على الزوايا والأضرحة التي تعج بهما البلاد. وكذلك الدراويش الذين يصدقون تلك الخرافات وصورة الوثنية الجديدة متخذة الطابع السياسي والأصنام المزوقة بأسماء جديدة. ينطلق مالك بن نبي في فكرة الإصلاح من قوله تعالى: " إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ [الرعد:11] ". **فالتغيير إذن ينطلق بداية من الأفراد الراغبين على الحقيقة بصحوة روحية وفكرية تتبعها فيما بعد نهضة مجتمعية تشكل اللبنة الأساسية لقيام الحضارة.** الا أن هذه الصحوة يجب أن لا تكون فردية فحسب بحيث لا تصل لأحد ومن هنا يمكن أن نقول أن إصلاح الأفراد كما أشارت له الآية الكريمة هي أساس أي تغيير مجتمعي وأن اصلاح الواقع الاجتماعي المتخلف هو السبيل الى إحداث نهضة حضارية. فمنظور مالك بن نبي يأخذ الروابط الاجتماعية التي هي مكون أساسي الذي يعطي للدولة والسياسة شكلها. **وهذا ما افتقده إنسان ما بعد الموحدين لقد انفصل إيمان الفرد عن بيئته الاجتماعية (...) وإلى الذرية، والتعصب، والميل إلى الاعتذار - والتي لم تستطع الروح الإصلاحية التخلص منها**

تلقائيًا ـ أضيفت إليها العيوب المؤسسية: المجادلة، والحرفية، والهستيريا، والشعرية التي كانت من سمات ثقافة ما بعد الموحدين.

وبذلك فهو يرى أنّ الحكومات مهما كانت ما هي إلا آلة اجتماعية تتغير تبعاً للوسط الذي تعيش فيه وتتنوع معه، فإذا كان الوسط نظيفاً حرّا، فما تستطيع الحكومة أن تواجهه بما ليس فيه، وإذا الوسط كان متسماً بالقابلية إلى الاستعمار، فلابد من أن تكون حكومته استعمارية، [3]وهي وجهة نظر جديرة بالتركيز عليها نظراً لتركيزها على العوامل الذاتية بدون إلقاء التهمة كاملة على الاستعمار؛ فالجريرة اشتركت فيها الأمة باستعدادها للاستعمار.

مقومات الحضارة: (الإنسان،الوقت، التراب)+ الدين

الحضارة عند مالك بن نبي هي "مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد في كل طور من أطوار حياته المساعدة الضرورية " ويرى مدى ارتباط الدين في نشوء الحضارات فأينما وجد الوحي أو الدين فهناك تنشأ الحضارة. وعند العودة الى الحضارة الأولى في الإسلام يمكننا أن نجد طريق الإصلاح. ويلاحظ مالك بن نبي أن أغلب محاولات الإصلاح في العالم الإسلامي كانت معالجة للمرض الحاصل في المجتمع وليس علاج للأسباب المؤدية لهذه الأمراض ويصورها كالمريض الذي يذهب لصيدلية لشراء دواء لمرض لا يعرفه. ومن أجل أن نمتلك القدرة على علاج هذه الأسباب علينا بداية أن نفكك الحضارة كما يفعل الكيميائي الى مكوناتها الأساسية، فما نأخذه نحن من الحضارة الغربية ينحصر بمخرجات الحضارة المادية أو الشيئية ومن هنا يضع لنا مالك بن نبي معادلة الناتج الحضاري ب:

ناتج حضاري = إنسان + تراب + وقت

ومع ذلك يرى مالك بن نبي أن توفر هذه العناصر الثلاثة لا يضمن بالضرورة قيام حضارة، كونه ان" بناء الحضارة لا يتم بتراكم نتائج الحضارة، بل بحل هذه المشكلات الثلاث من جذورها" وهو يؤكد وجود عامل اساسي آخر لقيام الحضارة، وهو ما يسميه"محفز الحضارة" والذي يؤثر على اندماج العناصر الثلاثة الأخرى وتفاعلها، وهي الإنسان والوقت والتربة. لذا، يفهم من موقف مالك بن نبي أن هذا الترابط بين هذه العناصر الثلاثة الأخيرة ليس يتم بطريقة عفوية وعشوائية، بحيث يستقيل الإنسان عن بناء الفكرة واعتماد العقل في نسج خيوط الحضارة وفق سياقه المحلي والعالمي والحضاري، ويترك مصيره مجهولا تتحكم فيه قوى خارجية او الطموحات المادية البحتة التي تقوم على النظرة الشيئية للحياة. انه يؤكد ضرورة حضور الوعي والفكر العميق القائم على أسس علمية واقعية وقيم أخلاقية دينية تحرّر الإنسان سيطرة المادة وكذلك من التواكل والخرافة.

فالناظر الى هذه المعادلة يمكنه أن يرى أنها بالمجمل مكونات مادية يعزوها البعض الى تأثر مالك بن نبي بالحضارة الغربية الا أنه لا يهمل هنا أن من أجل أن تنجح هذه المعادلة علينا إضافة عامل مساعد كما يفعل الكيميائي حتى تنجح تجربته وهي هنا: الدين. وهو بمثابة ركن أساسي في تشييد معالم القوة والحضارة في عند أي امة. **" إن المعيار العام في عمل الحضارة هو انها هي التي تنتج منتجاتها، ومن غير المنطقي والسخيف أن نزعم أننا ننتج حضارة من منتجاتها "** حيث يحضر الدين في مختلف المراحل التي تمر عبرها الحضارة، لكن فعّالية الفكرة الدينية ودورها في قيام الحضارة او أفولها مرتبط بالفهم البشري للدين وقدرته على استنباط القيم والقوانين التي يمكن ان تساهم في التقدم والتحضّر. معطيا بذلك الدور لكل من القيم والفكر والعلم والجهد الروحي و العملي المادي للإنسان في ظل تفاعل متكامل لبناء الحضارة. ولهذا فهو يرى أنّ الدورة الحضارية لأي مجتمع يمكن تلخيصها بثلاث مراحل للتطور:

يكون الدين فعّالا في تغذية روح الفرد،فيقبل من خلال تقديسه وحبه وتعلّقه بالدين على الاجتهاد في تطبيق تعاليمه وإحكامه، على المستوى الفردي او الاجتماعي.-

المرحلة الأولى: النهضة أو الميلاد وهي طور صاعد. (الروح و والغيرة قوة الانتماء العقدي والطموح للتأسيس لأركان المجتمع.

المرحلة الثانية: الأوج وهي تسير بخط متوازي. (العقل الروح هذا التوافق الذي يساعد على توفير مختلف الأسباب التي تؤسس للحضارة وازدهارها وانتشارها في أن واحد .

المرحلة الثالثة. (الغريزة الأفول وهي طور هابط(: وهنا يحدث التحول فبالرغم من حضور الدين ومظاهر التدين من عبادات وشعائر لكن تضعف تأثيرات الدين على الحياة الواقعية والعملية، فتسيطر النزعة المادية على الفرد على حساب التزكية الروحية، بحيث يعم الانتصار للنفس والدفاع عن المصالح الذاتية للأفراد، فتضعف روح الانتماء وهمة الدفاع والتضحية ويعم الخنوع وحب الملذات، بسبب أفول الفكرة الدينية او قصورها وعدم تماشيها وروح العصر، فتصبح بذلك عائقا أمام التقدم والتطور -. ومن الملاحظ أن إنسان ما قبل الحضارة يتمتع بروح وطاقة عالية على التجديد بينما انسان الحضارة يفقد هذه الطاقة تدريجياً فيفقد قدرته على التجديد والإصلاح الا اذا أصلح نفسه كما أشارت الآية اليه. فالمجتمعات عليها أن تحافظ على هدف ومعنى متجددين اذا أرادت أن تستمر في تحقيق نهضتها الحضارية.

الدين كمحفز روحي حضاري:

وكما بيّنا سابقاً، فإن مالك بن نبي يعتبر الدين الدافع الأساسي وراء بناء الحضارة. ففي المرحلة الأولى التي أطلق عليها مرحلة الروح، يتحرر فيها الإنسان من سيطرة الغريزة وتسيطر عليه صيحة الروح، تلك الصيحة التي جعلت بلال بن رباح يقابل جلدات جلاديه ب "أحدٌ أحد"، تلك الصرخة التي حررته من الألم الغريزي ولبّى فيها نداء الروح، تلك الرغبة بالتحرر من صوت الغريزة حيث لم يكن للعقل هنا أي دور بعد في هذا الطور. وتنشأ هنا ما يسميها مالك بن نبي ميلاد الفكرة الدينية للحضارة.

تستمر هذه الفكرة الدينية المميزة للمجتمع بالتطور حيث تنتج حاجات وضرورات جديدة لا ترتبط بالضرورة بالمظاهر الروحية للدين بل تكون مادية بحتة. ان توازن هذه المتطلبات الروحية والمادية للمجتمع تصل بالمجتمع الى أوجه في المرحلة الثانية وتستمر بشكل متوازي مع تطور هذه المجتمعات بالنسبة للزمن. يظهر صوت العقل في هذه المرحلة وتكون سيطرته أعلى من سيطرة الروح على المجتمعات ويمكن ملاحظة ازدهار العلوم والفنون في هذه المرحلة.

في مرحلة الأوج تملك المجتمعات الخيار في اطلاق سيطرة العقل على كل شيء ومن هنا تنحى المجتمعات الى منحى مادي (مثال الماركسية) لا يملك السيطرة على الغريزة كما تفعل الروح، أو العودة الى سيطرة الروح بالمطلق مع إهمال للجوانب المادية والعلمية أو أن توازن بين هذين المكونيين. يرى مالك بن نبي أن اطلاق العنان لسيطرة العقل على المجتمع يعيد للغريزة دورها بالسيطرة على الأفراد لندخل بعدها في الطور الثالث وهو الأفول.

الإنسان النصف: وسبيل بناء الإنسان القادر على صناعة الفعل الحضاري.

من الأمور اللافتة للنظر عند قراءة الفصل الخاص بمركب الحضارة (الانسان) هو تعريفه للانسان المدني، فمالك بن نبي يرى انسان المدينة بأنه نصف فكرة ونصف تطور وهو احدى الأسباب في عجزه الذي نراه الآن على التجديد. والمقصود بهذا هو أنه ليس رجل فطرة بالكلية (انسان القرية او البادية وكما بيّنا أنه نقطة انطلاق) وليس رجل حضارة بالكامل (يشكل الناتج النهائي أو أوج الحضارة) فهو يملك أنصاف حلول (أطلق عليها السياسة) يدور حولها.

وبناءاً على هذا، فالمكون الاجتماعي للثقافة يمكن أن يأخذ هذه الأشكال:

-عنصر الأخلاق الضروري لبناء الروابط الاجتماعية في المجتمع.

-عنصر جمالي وهو يقود ما يسمى ذوق المجتمع العام.

-منطق عملي والذي يشكل نشاط المجتمع.

-فن تطبيقي أو ما يسميه ابن خلدون بالصناعة يختلف من مجتمع الى آخر.

وبارتباط الثقافة بالحضارة والتي تشكل المحيط العام الذي تنشأ فيه الحضارة وتتطور من خلالها يكون اتجاه الحضارة حسب المعادلة التالية:

مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي = اتجاه الحضارة

وهما مكونين أساسيين لا يمكن الاستغناء عنهما في معرفة الناتج النهائي للحضارة. فبتغيير الأولويات أو ترتيب هذان المركبان تختلف الصورة النهائية للمجتمع. فإذا كانت الأولوية الأولى في المجتمع إعلاء الذوق الجمالي على الأخلاقي، مثال الفن العاري أو تطور الملابس في المجتمعات الغربية نرى كيف تشكلت الثقافة الغربية وبالمقابل إعلاء الأخلاق على الذوق الجمالي في المجتمعات الإسلامية ونظرتها للفن العاري الذي قوبل بالرفض من مبدأ أخلاقي وكيفية تطور الملابس التي تتسم بالحشمة. ويرى أننا بدل أن نبني حضارة، قمنا فقط بتكديس منتجاتها، لم تكن النهضة الإسلاميـــة بناء، بل تكديس المواد. ويوضح بن نبي أن المقياس العام في عملية الحضارة،هو:أن الحضـــارة هي التي تلد منتجاتها. كما عرض العلاج من خلال معـــادلة هـــي: ناتج حضاري =إنسان + تراب + زمن، بالإضافة إلى الدين. وتعود مشكلة النهضة، برأيه، إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، ومشكلة التراب، ومشكلة الوقت، لابد من حلها لإقامة نهضة. تحدث مالك بن نبي عن الدورة الخالدة، فالحضـــارة عنده تمر بثلاث مراحل هي: **مرحلة الإقلاع**، تليها **مرحلة البنيان والتمدين**، وصولاً الى **مرحلة الهبوط** من هذا السقف التمديني وبعدها الانحطاط الحضاري. كما بين معنى العدة الخالدة بأنها الوقت الزمن- وساعة العمل. وقد بيّن دور و أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة من خلال تتبع فلسفي وتاريخي لهذه النقطة. كما تطرق في مؤلفاته الى مشكلة المرأة واختزال النظرة إليها بمنحى اضطهادي وسادي لترسخ صورتها المسطحة، ومن ثم إغفال ضرورات تخطيط حياتها لتكون حاضرة في المجتمع.

يرى مالك بن نبي أن الحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية، ويؤكد أيضا أننا ينبغي أن نبحث في كل حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها[6]، فلا تخلو أية حضارة من بعدها الديني كمنطلق وموجه وغاية في آن واحد. وهذا يرجع الى دور المقدس في تغدية روح العمل والثورة من أجل تغيير الأوضاع المزرية التي تعاني منها الشعوب او المجتمعات، وهو هنا ينطلق من استقراء تاريخ الحضارات الإنسانية،حيث يكون الدين او المعتقد حاضرا بقوة في تفعيل الفكر البشري وتحفيز روح العمل التضحية لأجل بلوغ السعادة وبناء الحضارة. وهو في ذلك يؤكد إلى أن مؤلفات ماركس وأنجلز تُخفي في الواقع التكوين الحقيقي للظاهرة الشيوعية؛ بفصلها ظاهريا عن دورة الحضارة المسيحية، [7] الا انه

من المفكرين من يرى أنّ وصف ابن نبي للحضارة الغربية بالمسيحية، وإغفال طبيعة نمط الإنتاج الرأسمالي الحاكم لصيرورة عمل تلك الحضارة في نظر كاتب السطور، تجاهلاً عن عمد لجوهر تلك الحضارة التي سترغم مالك بن نبي على الاقتراب من موضوع شائك، وستضطره لاستخدام مقاربة مادية اجتماعية، إشارة مالك بن نبي للعقيدة الدينية كباعث للحضارة تتسق مع أفكاره الدينية ومشروعه إلا أنها تجانب الحقيقة –من وجهة نظر كاتب السطور- فالغرب كان دوماً مسيحياً، ولكنه لم يخطو إلى الأمام سوى مع تبنيه لنمط إنتاج مخالف وجديد، وهو النمط الرأسمالي السائد حالياً هناك.

ثم يعاود يقول مالك بن نبي: "إن أكبر مصادر خطئنا في تقدير المدنية الغربية أننا ننظر إلى منتجاتها وكأنها نتيجة علوم وفنون وصناعات، وننسى أن هذه العلوم والفنون والصناعات ما كان لها أن توجد، لولا صلات اجتماعية خاصة، لا تتصور هذه الصناعات بدونها، فهي الأساس الخلقي الذي قام عليه صرح المدنية الغربية، يعاود مالك الإشارة مجدداً إلى الأصل الديني المسيحي للحضارة الأوروبية [8]."كما يشير المفكر الجزائري إلى مقياس عام في عملية الحضارة؛ **"فالحضارة هي التي تلد منتجاتها** [4]"مشيراً إلى أنه ليس من الواجب لكي ننشئ حضارة أن نشتري كل منتجات الحضارة الأخرى ربما كان مفهوم "إنشاء حضارة عربية" مثار اختلاف بين كاتب السطور ومالك بن نبي، فكاتب السطور يرى أن المسألة الحضارية يجب ألا تشغل بال مثقفي الجنوب الفقير؛ فالأولى توجيه الأنظار والرؤية نحو الاقتصاد والتركيز على التعامل البراغماتي والأداتي مع مسائل التحديث والتنمية والتذكير بعبارة رئيس الصين الراحل "دنج هسياو بنج": "لا يهم لون القط ولكن المهم أن يقتل الفأر" وذلك حل معضلة التنمية بدون أن يغمر سؤال الأصالة والمعاصرة والحداثة والتقليد أصحابه في محيط هائل من التفاصيل التراثية.

وننتقل مع ابن نبي في كتابه إلى فكرة بالغة الأهمية، حيث رصد ظاهرة (المثقف الحِرفيُّ) حامل اللافتات العلمية وسليل الأسرة ذات الفقر المدقع وصاحب القدرة على المتاجرة بالأفكار أيا كانت وتسويقها بدون أن يلتفت لصراع مع ضميره[9]، وهي ظاهرة يراها كاتب السطور نتيجة لواقع عربي أعطى ظهره للثقافة، وانبهر بجمع المال وتسليع كل منتج قابل للتبادل حتى الثقافة مع انفتاح ثغرة ضئيلة للغاية أمام المثقف الفقير والطامح لجني الثروات في واقع غني بالثروات المادية.

في الختام، يمكن القول ان الطرح الذي تبناه الفيلسوف مالك بن نبي فيما يتعلق بمشكلة الحضارة يرتكز على لبنة أساسية بيّن من خلالها أن للبشر دورًا هامًا في ضمان بقاء الحضارة. من ناحية أخرى، لا يمكن للحضارة أن تنمو وتصل إلى قمة التميز إلا بدعم من

قوة الفكر وتقدير الدين. يكمن التحدي المعاصر الذي يواجه المسلمين في مشكلة الحضارة. لذا، يمكن أن تكون فكرة مالك بن نبي بمثابة دليل لإعادة بناء حضارة في أزمة، وهي فكرة أصيلة تأخذ في الاعتبار نجاحات وأخطاء الماضي كأساس. كما ينبغي النظر في هذه الدراسة واستخدامها لبناء الثقة في محاولة لوضع رؤية لحضارة قوية قادرة على الاستمرار في المستقبل. ويؤمل أن تساعد مساهمة هذه الدراسة في تقديم أفكار ونماذج في محاولة لتخطيط استراتيجية نمو أكثر فعالية وحل الأزمة الاجتماعية التي يعاني منها المجتمع اليوم.

فبقراءة أعمال فيلسوف الحضارة مالك بن نبي، يُمكننا تحديد عدة عوامل لانحطاط أية حضارة بما فيها حضارة العالم الإسلامي بالخصوص. وعند تقاطعها، يُمكننا أن نفهم أن هذا المفكر الحضاري يُولي عوامل الأفكار أهمية بالغة في تحليلاته. وبصورة عامة، يرتبط الانحطاط بعقليات، فردية أحيانًا وجماعية أحيانًا أخرى، عاجزة عن بناء نماذج عمل خاصة بها تنسجم مع معاييرها الاجتماعية والثقافية، وبالتالي تُمكّن من تطوير حضارة خاصة بمجتمعاتها.

نظرة عامة عن اثاره الفكرية: *أما آثاره الفكرية، فيمكن القول إنه لم يكف عن التأليف منذ سنة 1946 حيث ألَّف أول كتاب له وهو (الظاهرة القرآنية)، وتلاه برواية (لبَّيك) 1947 وهي رواية فلسفية، ثم (شروط النهضة) 1948، (وجهة العالم الإسلامي)، (فكرة الأفريقية - الآسيوية) 1956، (حديث في البناء الجديد)1957،(مشكلة الثقافة) 1959، (الصراع الفكري في البلاد المستعمرة) 1960، وهو أول كتاب كتبه مالك بن نبي بالعربية مباشرة بخلاف معظم كتبه التي ألَّفها بالفرنسية. وفي عام 1960 كتب أيضا كتابه (فكرة كومنولث إسلامي)، (ميلاد مجتمع) 1962، (إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي) 1969، (مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي)، (المسلم في عالم الاقتصاد)، ونشر له بعد وفاته كتب (دور المسلم ورسالته في القرن العشرين) 1977، (بين الرشاد والتيه) 1978، ولمالك بن نبي آثار فكرية منها ماطبع بعد وفاته ومنها لم يطبع، وهي في صورة مخطوطات مثل: (دولة مجتمع إسلامي)، (العلاقات الاجتماعية وأثر الدين فيها)، (مجالس تفكير) وغيرها. كما أصدر الجزء الأول من كتاب مذكرات شاهد القرن في عام 1966 بعنوان مذكرات شاهد القرن: الطفل، تضمن الكتاب طفولة الكاتب، وقام بترجمته إلى العربية مروان قنواتي، وفي بداية السبعينيات ألف مالك بن نبي الجزء الثاني مباشرة باللغة العربية، وخصصه لمرحلة دراسته في باريس، وتمتد هذه الفترة من 1930 إلى 1939. وهناك جزء ثالث من مذكرات شاهد القرن بعنوان العفن.*

هـ) المصادر والمراجع

مؤلفات مالك بن نبي – دار الفكر –دمشق – سورية

مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي – محمد عبد السلام الجفائري– الدار العربية للكتاب–ليبيا – تونس -1984.

مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا –الدكتور أسعد السحمراني –دار النفائس –بيروت – لبنان – 1986.

التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي –الطاهر سعود- دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع –بيروت –لبنان -2006.

قراءة في فكر مالك بن نبي – محمد العبدة –مجلة البيان –العدد 16،15،14 ،17، 19، 21، 23.

مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرنولد توينبي –آمنه تشيكو-المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر -1989.

التغيير الإجتماعي عند مالك بن نبي –الدكتورعلي القريشي – الزهراء للإعلام العربي –مصر – 1989.

تصفّح المقالات.

-[1]مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر، سوريا، 1979، ص 28

-[2]رفعت السعيد، حسن البنا متى كيف ولماذا؟، دار الطليعة الجديدة، سوريا، الطبعة العاشرة، 1997، ص 120

-[3]مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر، سوريا، 1979، ص 30

-[4]المرجع السابق، ص 42

-[5]المرجع السابق، ص 44

-[6]المرجع السابق، ص 50

-[7]المرجع السابق، ص 54

-[8]المرجع السابق، ص 89

-[9]المرجع السابق، ص 84